الثورة
الاثنين 27 ذو الحجه 1433هـ 12 نوفمبر 2012م العدد (17526)

شجرة الرمان وسقوط الأندلس

■ القاهرة – في روايته «ظلال شجرة الرمان» يتوقف المفكر البريطاني طارق علي أمام مشهد تاريخي عاصف ترك بصماته على مستقبل العالم في سنوات أعقبت سقوط غرناطة ولكن المؤلف لا يلجأ إلى مقولات جاهزة بل ينسج خيوطا معقدة ومتداخلة لشبكة من العلاقات الاجتماعية والفلسفات والأديان في دراما أشبه بالتراجيديات الكلاسيكية.

وسقوط غرناطة عام 1492 لم يكن تسليما طوعيا لمدينة وإنما إنهاء لمرحلة وفتح أبواب الحجيم على المنتمين إليها من المسلمين واليهود معا والاستيلاء على أملاكهم «وتقسيمها بين الكنيسة الكاثوليكية والعرش» وتحريم ممارسة الشعائر الإسلامية أو التحدث بالعربية وتحويل غرناطة إلى «محرقة خطرة».

وفي الاستعراض الدرامي لهذا الموقف لا يميل طارق علي إلى تصوير الأندلس كفردوس مفقود وإنما يرصد على لسان أبطاله ومن خلال سلوكهم ما يمكن اعتباره حتمية تاريخية جعلت النهاية غير مفاجئة حيث خير المسلمون بين التحول إلى الكاثوليكية والقتل فاختار البعض أن يتحول في حين لجأ آخرون للثورة المسلحة التي لا يكتب لهم فيها النصر. وقبل المواجهة المسلحة أو بالتزامن معها حدد المنتصر هدفه وهو محو ذاكرة المهزوم.. ففي المشهد الافتتاحي للرواية في نهاية عام 1499 يحرق نحو مليوني مخطوط «السجل العامر لثمانية قرون» وجمعت من مكتبات 12 قصرا و195 مكتبة عامة في غرناطة بأمر من «راهب الشيطان» الأسقف خمينيث دي سيسنيروس الناطق بلسان الكنيسة والتاج معا ولكن بضع مئات نجت من المحرقة بحيلة من جنود كانوا يلقون المخطوطات الأثقل وزنا على عتبات أبواب مغلقة فيتسلل رجل ملثم ويلتقطها ثم عبرت تلك المخطوطات إلى مدينة فاس بالمغرب.

وكان دي سيسنيروس يرى«أنه لا يمكن القضاء على الوثنيين إلا بمحو ثقافتهم محوا تاما... كان يشعر بالسرور. لقد اختاره الرب القدير ليكون أداة لإنجاز هذه المهمة.. (إنه) يدرك قوة الأفكار أكثر من أي شخص آخر» واعتبر ليلة الحريق نصره الحقيقي وفي الوقت نفسه وافق على استثناء 300 مخطوط تتعلق بالطب من الحريق.

وطارق علي ولد في باكستان عام 1943 وتسجل مقدمة الرواية أنه كان رئيس اتحاد طلاب جامعة البنجاب واعتبره أهله «شابا طائشا» وحرصا على سلامته أرسلوه لدراسة الفلسفة والاقتصاد في لندن فأصبح عام 1965 رئيس اتحاد طلاب جامعة أوكسفورد وصار «مقاتلا شرسا على أكثر من جبهة» وتولى رئاسة تحرير عدة صحف ومجلات منها «اليسار الجديد».

وعلي من أبرز مناهضي العولمة ومعارضي النموذج الأميركي ومن مؤلفاته «باكستان: حكم عسكري أم سلطة شعبية» 1970 و«الثورة من أعلى: الاتحاد السوفيتي إلى أين؟» 1988 و«صدام الأصوليات: الحملات الصليبية والجهاد والحداثة» 2002 إضافة إلى روايات أبرزها «خماسية الإسلام» التي يتناول فيها جوانب من تاريخ الحضارة الإسلامية.

وتقع «ظلال شجرة الرمان» في 320 صفحة متوسطة القطع وترجمها الكاتب المصري محمد عبد النبي وراجعها المترجم المصري طلعت الشايب ونشرت في القاهرة عن «الكتب خان للنشر والتوزيع» التي ستصدر تباعا الأجزاء الأربعة الأخرى وهي «كتاب صلاح الدين» و«امرأة الحجر» و«سلطان في باليرمو» و«ليلة الفراشة الذهبية».

وتدور الأحداث في قرية «هذيل» القريبة من غرناطة والتي أسستها عشيرة الهذيل في القرن العاشر الميلادي وكان المؤسس ابن فريد يجمع بين شجاعة الأسد ومكر الثعلب ولم يبق منه بعد خمسة قرون إلا سيف ورثه حفيده عمر بن عبد الله رب الأسرة التي ستشهد نهاية غرناطة. وتضم الأسرة مربيته ومرضعته العجوز الصارمة «أمه» وزوجته زبيدة وولديه زهير ويزيد وابنتيه كلثوم وهند إضافة إلى أخته زهرة والعم ابن هشام والعم ميجيل الذي تحول ظاهريا وأصبح أسقفا.

ويميل كثير من أبطال الرواية إلى الحكمة حتى لو لم يكن ذلك مبررا فنيا كما في حوارات قاطع الطريق أبي زيد المعري الذي يستلهم فلسفة الشاعر أبي العلاء المعري ويقول لزهير إن البشر ينقسمون إلى فئتين «أوغاد مستنيرون أو حمقى متدينون» في حين يوجد مبرر فني لآخرين منهم «وجيد الزنديق» المعتزل في كهفه مع مخطوطاته في الشعر والفلسفة والذي تتقاطع آراؤه مع فلاسفة منهم ابن رشد وابن حزم والمعري.

و«وجيد الزنديق» هو محمد بن زيدون وكان مطلعا على أعمال علماء الفلسفة والرياضيات والتاريخ واللاهوت والطب وتبادل الحب مع زهرة ابنة فريد فأقسم الأب أن يقتل «ابن الخادمة» الذي جرؤ على النظر إلى بنت سيده فاختفى الشاب وغضبت زهرة وأرادت الانتقام لنفسها من الأسرة فمنحت جسدها لطالبي المتعة العابرة في غرناطة ثم دخلت «المارستان» 40 عاما وهي تدعي الجنون الذي عصمها من التحول الإجباري إلى الكاثوليكية قائلة للرهبان إنها تركت الإسلام بإرادتها ولهذا دفعت بها أسرتها إلى هذا المكان.

وزهرة التي عادت عام 1500 إلى العائلة تنصحهم بجمع مخطوطات ابن حزم وابن خلدون وابن رشد وابن سينا الموجودة في مكتبة المنزل وإرسالها إلى مكان تصان فيه «اشحنوها بحرا إلى الجامعة (الأزهر) في القاهرة أو فاس أما هنا فلن يكتب لها النجاة أبدا».

ولا يميل طارق علي لتصنيف الناس إلى أشرار وأخيار ففي الرواية يتصدى لعنصرية الأسقف خمينيث دي سيسنيروس رجل عاقل هو الكونت دون إنيجيو لوبيز دي مندوثا القائد العام لغرناطة وعمدتها وتبدو أفكاره قريبة من آراء خلفه أورتادو دي مندوثا (1503–1575) الشاعر والمحارب والدبلوماسي الذي سجل شهادته على مواجهات –بين الإسبان والأقلية المسلمة التي كانت تحارب بأسلحة بدائية وتنتظر عونا من الأتراك والمغرب والجزائر– في كتاب «حرب غرناطة» بين عامي 1568 و1570.

وهنا دي مندوثا يوبخ دي سيسنيروس قائلا إن المسلمين لم يحرقوا معابد اليهود أو الكنائس ليقيموا مكانها مساجدهم وإن سفك الدماء سيؤدي إلى مقاومة المسلمين «وسوف يسفك المزيد من الدم. دمهم ودمنا... محكمة التفتيش تجمع ثروة فاحشة من أجل الكنيسة... كان إحراق كتبهم عارا كبيرا. لطخة لوثت شرفنا» مشددا على أن المخطوطات العلمية العربية لا نظير لها.

ودي مندوثا كان صديقا لعمر بن عبد الله رب عائلة هذيل الذي يستقبله في قصره فيذكره عمر بأن ما قام به دي سيسنيروس «أكبر فاحشة في جبين العالم المتحضر» وأكثر همجية مما فعله التتار حين دمروا بغداد ويبدو دي مندوثا عاجزا حين يواجه صديقه بالحقيقية «قررت الكنيسة والعرش محو دينكم من هذه البلاد إلى الأبد».

وكانت الثورة تحت الرماد ويتحمس لها شباب في مقدمتهم زهير بن عمر بعد أن سمع من ابن داود المصري –الذي يدرس في الأزهر وجاء لإجراء أبحاث عن حياة وأعمال ابن خلدون– كلاما عن «ضرورة الثورة المسلحة ضد المحتلين... كان يتحدث بنبرة رقيقة ولكن سرعان ما فتن رفاقه المستحمين بتلك الموسيقى في لهجته القاهرية وبما تضمنته رسالته».

وتوجه الرواية أصابع الاتهام بإدانة المسلمين أنفسهم عما انتهت إليه أحوالهم إذ يقول ابن زيدون «وجيد الزنديق» إنه ظل يحذر وإن «الإيمان وحده غير كاف للوصول إلى غاية... نحن المسلمين ندير أعناقنا على الدوام نحو الماضي بدلا من التطلع للمستقبل... فشلنا في ترسيخ قواعد سياسية قادرة على حماية جميع مواطنينا ضد نزوات الحكام.. لم نستطع أن نتلمس الطريق نحو الاستقرار وحكم ينهض على العقل».

أما ابن داود المصري فيقول إن «مأساة الأندلس» تفسرها فلسفة ابن خلدون حيث «إن أحجار البناء المفككة لا تصلح لبناء سور قوي حماية مدينة» ويرفض الشرفاء التحول عن دينهم وتبدأ ثورة مسلحة يتزعمها زهير بن عمر القائل «أن نموت ونحن نقاتل خير من أن نحيا حياة العبيد» ويقتل أبوه وأخوه وتنجو شقيقته زهرة إذ تغادر إلى فاس مع زوجها ابن داود المصري.

إصدارات ثقافية

«الإقالة من الحياة»

● الشارقة . يشارك مشروع «كلمة» للترجمة التابع لهيئة أبوظبي للسياحة والثقافة في معرض الشارقة الدولي للكتاب الذي بدأت فعالياته الخميس الماضي وتستمر حتى 17 نوفمبر/تشرين الثاني الجاري، واحتفاء بهذه المناسبة المهمة، أطلق مشروع «كلمة» للترجمة روايتين جديدتين تمت ترجمتهما عن الإيطالية على النحو التالي:

• «حكاية الدهان...حولية الاحتضار» للمؤلف جيزوالدو بوفالينو

تتناول الرواية ثنائيات الحياة والموت، المرض والشفاء، الفناء والبقاء التي طالما شغلت الروائيين والمفكرين وتعرض لها الأدب الأوروبي الحديث مراراً من خلال قصة شاب نجا من ويلات الحرب العالمية الثانية ليجد نفسه مصاباً بداء الدرن ومحتجزاً في مصحة «كونكا دورو» للعلاج ليصارع حرباً وموتاً آخرَين. تتشابك علاقات الشاب في المصحة مع المرضى الآخرين المحتضرين، ولا سيما مع طبيبه غزير الثقافة ومتقلب الأطوار، ويرتبط بقصة غرامية مع إحدى المريضات ذات الماضي الغامض. يعايش السرد الروائي كيفية مواجهة مجموعة من المرضى لكل منهم طبيعته المتفردة في مواجهة الموت المحتوم. وعلى عكس الآخرين ينجو البطل من الداء المميت ليعود إلى الحياة مجدداً مشبعاً بتجربة الموت وبرائحته وبتأملاته لا يدري إن كانت نجاته تلك هي نعمة أو نقمة، أهي عودة إلى الوطن أو رحلة إلى المنفى. غير أنّه مع مرور الزمن يدرك أن القدر قد اختاره شاهداً ومشهوداً على تلك الأحداث.

• «الإقالة من الحياة» للمؤلف إيرمانّو ريا

تمثل رواية «الإقالة من الحياة» مدَينة نابولي بتاريخها، وشوارعها، وأزقتها، وعمالها، وعصاباتها، وتتناول أحداثاً واقعية جرت خلال العقد الأخير من القرن الفائت استقاها الكاتب من أحد العمال الذين كانوا يعملون في مجمع إيلفا للحديد والصلب، الذي كان مقاماً في حي بانيولي في مدينة نابولي. فيستعرض إيرمانّو الأحداث التي سبقت وواكبت تصفية المجمع، الذي أنشئ في بداية القرن العشرين، وازدهر في أعقاب الحرب العالمية الثانية.

ويحرص مشروع كلمة على المشاركة في معرض الشارقة الدولي للكتاب نظرا لما يتمتّع به من أهمية على المستويين المحلي والعالمي، خاصة وأنه يجمع شريحة واسعة من المبدعين والمثقفين والقراء والناشرين من مختلف أنحاء العالم، لذا فهو يعد نافذة للاطلاع على ما يطرأ في العالم من جديد الثقافة والأدب والفنون.

يذكر أن مشروع «كلمة» للترجمة قد أولى اللغة الإيطالية منذ انطلاقته اهتماماً خاصة بسبب النقص الكبير الذي تعانيه المكتبة العربية في الكتب المترجمة عن الإيطالية، وفي سبيل سد هذا النقص أبرم المشروع اتفاقية تعاون مع «معهد الشرق» بروما والذي يعد أعرق مؤسسة أبحاث متخصّصة في شؤون العالم العربي والعالم الإسلامي في إيطاليا، وتجاوزت عدد الإصدارات المترجمة عن الإيطالية والصادرة عن المشروع حتى يومنا هذا زهاء الـ 30 عنواناً في مجالات متعددة ومتنوعة.

سلافة الروح

● دمشق– سلافة الروح عنوان مجموعة الدكتور راتب سكر الشعرية الصادرة عن الهيئة العامة السورية للكتاب وهو عنوان يتلاءم مع قصائد المجموعة التي يشعر فيها المتلقي شيئا من الروح الغريبة في عالم اختلف تماما وأصبح يوزع القهر والألم ويجعله ماثلا في كل الشعاب التي يمر بها الإنسان ففرضها على عواطف الشاعر حتى امتزجت أشعاره بانعكاساتها المؤلمة .

وتبدو نفس الشاعر ظاهرة في كل المواضيع الموجودة في المجموعة التي تكونت من عواطفه سيما أنه راح يجمع بعض مظاهر الرؤية التاريخية والتراثية التي هزت كيانه ضمن مسافات الخيال الممتدة بعيدا حيث يرى مكانا لجراحه التي يصنع منها ما يخص الإنسان عندما يرى وهو يقرأ قصائده مدى العلاقة الجدلية بين جرح عنترة العبسي وجرح راتب سكر .. يقول في قصيدة معرفة الدار بعد توهم .. / بدل الوجود ضياءه / بظلام أيامي / وعتم توهمي / مالت بشائره / تراقص / جرة العسل الجميل / على حنايا علقمي / أغرودة هاجت / سنا فرح مصفى / في فمي /.

أما البعد فهو يؤجج القدرة الباطنية والانفعالية عند الشاعر لتبدو خلال بعض النصوص أن الصلة بين الانفعال والقصيدة واضحة وتحمل دلالات الصدق الوجداني في المفردات التي حرص الشاعر على الابقاء على عفويتها خلال تكوينها للبنية الفنية التي تجسد القصيدة كحالة متكاملة تحمل نوعا فنياً أو أكثر على أن يصل هذا النوع ببراعة للمتلقي كإضافة الدلالات الشعرية إلى الحالة الانفعالية فيقول في قصيدة بيان المثقل بالتنائي ..ظلام يغطي دروبي / يشد الليالي بكتان حزن / تدل على غربة الروح / يكوي وعودا / بأغصان زيتونة / في بساتين سهلي / .

يحاول سكر أن يجسد ظاهرة الوفاء بصفتها من الميزات الأساسية للعملية الابداعية عنده وتشكل أهم الخصائص المكونة لذات الشاعر الموهوبة مع حرصه الشديد على وحدة الموضوع وتلاؤمه مع الصورة مما يجعل المتلقي أمام حراك إنساني فيه مقومات الإنسانية التي تتجاوز المألوف السائد لتبقى ظاهرة الوفاء موجودة في الكائن البشري واعتبارها منطلقا أساسيا في حياته فها هو الشاعر يرى نافذة صديقه مغلقة بسبب سفره فيعبر عن ذلك في قصيدة /نوافذ موصدة /.. جاء المساء / ولم يجد سحبا / تطير به / فجاء مفسرا / اغلاق نافذة / تطل على حنايا الروح موصدة / بألواح من الخشب العنيد / كأنها اختزلت سجون الأرض / في كلمات / .

يعمل الشاعر سكر على جعل الألفاظ مدلولات تؤدي معاني لغوية وبيانية اختلجت بها نفسه لتصبح واسعة الدلالة فشعر خلالها اتساعا في المعنى وخروجا عن المألوف بسبب الدلالات التي يحملها فيبدو النص عفويا سهلا إلا أنه معقد التركيب والبنية وصعب التفكيك وفي هذا النوع من الشعر تكون السوية البلاغية موجودة في حدودها التي ترفع سوية النص يقول في قصيدة /في حضرتها البتول/../ هي غيمة عذراء / حالمة / تسافر في قطار وجودها / كما زرع الآتي / بضحكتها / وكم يكوي الظلام / بهاء مشيتها / فلا تجني / سوى حطب الحدود / .

وتظهر الصورة في قصيدة سكر ضمن الاستعارات التي تساهم في تكوينها وتحويل المعاني والألفاظ لإنتاج حالة جديدة مؤلفة من الأشياء التي امتزجت بدوافع الشاعر فيرى المتلقي مدى أهمية الصورة التي تكونت من خلال معايشة الشاعر حالات وطقوس متباينة ليأتي بها وبمكوناتها كما جاء في قصيدة /سلافة الروح /.. هي امرأة / تسرح شعرها بنسيم شرفتها / أعالي الغيم تحضنها / أراقة في أباريق الصباح / / فيوض عطر / من ضياء سوارها اللماح / فاغتسلت بضوء كلامه / لغة من البوح الأريب /.

يميل الشاعر في مجموعته التي تقع في 144 صفحة من القطع المتوسط إلى القيم الإنسانية والميزات الوجدانية التي تمكنه من التعامل معها على أنها جزء هام من قصائده إضافة إلى استخدامه الدلالات في تقديم الرؤى الأخرى التي يصبو إليها في عالم الإنسان وصوغها في قالب جديد.

تجريد

1

يقشّر برتقالة جنونه،
يجدها حامضة المعاني..!!

2

يقشّر الحقيقة
يجدها يتيمة الأبوين...!!

3

يقشّر صمت حبيبته
يجدها صاخبة البراكين.

4

يقشّر أصابعه
يجدها هاربة من الأبجدية.

5

يقشّر خيالها
يجدها عاشقة
لأكثر من ليل.

6

يقشّر رعشة الليل
يجدها مجزومة الرغبة.

7

يقشّر تاريخ شجونه
يجدها متطرفة البوح.

8

يقشّر ذكرياته الجامحة
يجدها ملغمة بالمستقبل.

9

يقشّر خطواته
يجدها منحازة إلى ظلها.

10

يقشّر آهات الأغنية
يجدها بلا روح.

11

يقشّر أيامه
يجدها مصابة بالملل.

12

يقشّر أوقاته
يجدها نائمة
في سرير الأمل.

13

يقشّر جروحه
يجدها موظفة لدى اللامبالاة.

14

يقشّر نفسه
يجدها بلا مؤهلٍ للفرح.

سطور

1

أخرجتني من قلبك
ولم تحتفظي حتى ببسمة فرحٍ
كنت أعيشها من أجلكِ.

2

ما زالت يدي
مليئة بالأسرار.

3

أسيرُمع أكاذيبها إلى آخر الحقيقة!!

4

تشتعلُ رغبةٍ في مطاردة أوهامها الذابلة.

5

يبدو أنني لم أتعلم بعدُ السير على قدمٍ وأهمة..!!

6

ذات مرة.. نسيت بقية السطر..!!

7

الحب يجعلنا نتغاضى عن أشياءٍ كثيرة..
ونتسامى فوق الجروح ونمنحُ المواجع أسماء أخرى.

Kood500@Hotmail.com